ورقة البداية

لستُ من هواة التقليب في الأوراق الشخصية لأناس رحلوا عن الحياة لأجل تحقيق انفراد صحفي أو بعثرة أسرار أناسٍ نحبهم ، بقدر ما هو بحث عن ذلك الزمن الجميل الذي طوى رغمًا عنا، وفرّ من عمرنا رغمًا عنا، ولم يعد مرة أخرى.

رسائل تختبئ في حقائب قديمة، أو بين ركام كراكيب متربة، أو ملقاة بإهمال في "السندرة"، أو ملقاة على الأرض في حجرة مهجورة، أو موضوعة على "رف" نسيه أصحاب البيت من سنواتٍ طوال... لكن التقليب فيها.. إمساكها باليد.. مجرد مرور العين عليها؛ يفتح آلافًا من الضحكات والأحزان والدمعات والصور.

الأوراق هي التي يتعرى الإنسان أمامها متجردًا من كل شيء ليبوح بما لا يستطيع أن يقوله لأحد.. أو هي حسب قول نزار قباني: (أعتقد أن الكاتب لا يكون في ذروة حريته إلا في مراسلاته الخاصة، أي عندما يقف أمام المرآة متجردًا من أقنعته وثيابه المسرحية التي يفرض المجتمع عليه أن يرتديها.. فالرسائل هي الأرض المثالية التي يركض الكاتب عليها؛ كطفل حافي القدمين، ويمارس فيها طفولته بكل ما فيها من براءة، وحرارة وصدق... إنها اللحظات الصافية التي يشعر فيها الكاتب أنه غير مراقب.. وغير خاضع للإقامة الجبرية).

وهذا صحيح إلى حد كبير، ولاحظته في الرسائل المتبادلة بين إحسان عبد القدوس وروز اليوسف.. تحس أن إحسان صاحب المقالات الساخنة التي فجرت قضية الأسلحة الفاسدة، وصاحب المقال الشهير "الجمعية السرية التي تحكم مصر" عن رجال ثورة يوليو، وصاحب الروايات التي لا تحصى؛ بعالمها القصصي الخاص بها؛ بأشخاصها الذين يتحكم في مصيرهم إحسان وحده؛ تحس أنه طفل صغير يركض على شاطئ نهر وهو يكتب إلى أمه: (... كنتُ أراكِ جميلة طول عمري، وما زلتُ حتى اليوم أراكِ بضفائر طويلة في لون الذهب، وبشرتك في لون اللبن المخلوط بعصير الورد، وعيناكِ في لون الربيع تنبضان بالحياة والحنان، وشفتاكِ فيهما رحمة وكبرياء..

ما زلت تضحكين كطفلة، وما زلت تتحدثين كصبية لم تنزل بعد إلى زحام الحياة، وما زلت تعاملين الناس في تواضع وسذاجة)... إنها قصة حب بين ابن وأمه، فهو يتغزل في عينيها وشفتيها وحنانها.

كذلك البطل القائمقام يوسف صديق صاحب الشرارة الأولى التي اندلعت في ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ والذي لولاه ما ارتدت مصر ثوب حريتها؛ تجده يكتب إلى زوجته سنة ١٩٣٦: (إنني تعبت من إرسال قبلاتي إليك -وأود أن أقبلك فعلاً- فليس القول كالعمل..

إذن سنبدأ شهر العسل من جديد، وسنبدأ حياتنا الزوجية من جديد، فكل ما مضى لا أعترف أنا به، ولا أسجله على نفسي مهما كان فيه من مزايا، وعليكِ أن تعتبري نفسك الآن خطيبتي، وأن موعد زفافنا هو أول يوليو ١٩٣٦ لا ٤ إبريل ١٩٣٥...).

هو شاعر وأديب وفارس من ضباط مصر الأحرار الذي أشعل شمعة الحرية ومضى لا يريد جاهًا ولا مالاً.. ولكن ظلت سيرته الحسنة.

كذلك تجد الرئيس الراحل أنور السادات يكتب إلى أولاده بكل خفة دم: (وحشتوني يا غجر يا أولاد الغجر.. سأفسحكم بسيارة عمكم جمال..)

وتُصدم حين تطلع على رسائل أشهر رئيس مخابرات عربي يكتبها من المعتقل لأولاده، فإذا بها مليئة بذكر الله سبحانه وتعالى وآيات كتابه الكريم، رغم أننا لم نقرأ عن صلاح نصر إلا قصصًا مليئة بالنساء والتجسس والفضائح.

إن هناك حياة أخرى لهؤلاء الناس قد تكون هي الحقيقة التي لا نعرفها.. والتي تتضح من الرسائل الخاصة بهم.. ولا أعرف من الذي فعل بصلاح نصر كل هذا؟!

أما المفاجأة فكانت في رسائل محمد كريم مخرج كل أفلام محمد عبد الوهاب، ويوسف وهبي الذي يطلب ألف ليرة سلف ودين من محمد كريم، وكتابات كريم إلى فكري أباظة وكامل الشناوي والشيخ محمد رفعت وغيرهم... حوالي ٢٤ رسالة تلخص تاريخ السينما المصرية.

وفي الحقيقة فإن مسألة الرسائل في الأدب العربي شغلت كثيرين من المفكرين والكتاب.. ولعل من مميزات هذا العصر أنه لم تكن هناك أدوات اتصال مثل الهاتف المحمول والـــSMS. وإلا ما وجدت هذه الرسائل الجميلة..

بل دعنا نتخيل أن "قيس بن الملوح" و"جميل بثينة" و"كثير عزة" كان لديهم هواتف محمولة، إذن لضاعت آلاف القصائد من عيون الشعر العربي.. ولافتقدنا الرومانسية التي تسكن أشعارهم... أو لو كان لدى "جبران خليل جبران" هاتف رقمه ٠١٠ أو ٠١٢ مثلاً، لما كتب إلى "مي زيادة": (ما أجمل رسائلك يا مي، وما أشهاها، فهي كنهرٍ من الرحيق، يتدفق من الأعالي ويسير مترنمًا في وادي أحلامي، بل هي كقيثارة "أورفينوس" تقرب البعيد، وتبعد القريب، وتحول بارتعاشاتها السحرية الحجارة إلى شعلات متقدمة والأغصان اليابسة إلى أجنحة مضطربة...).

كذلك الأمر في الرسائل الرائعة التي تركها مصطفى صادق الرافعي وضمها في كتب عنونها بـ"رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر" و"أوراق الورد"، وهو يدعي أنه يكتبها إلى صديق، ولكن الحقيقة أن هذه رسائل الرافعي إلى نفسه، كتبها لأجل حبيبته التي كانت له معها قصة طويلة ومعروفة، وهو سماها رسائل الأحزان لأنها على حد قوله: (هي رسائل الأحزان؛ لا لأنها من الحزن جاءت ولكن لأنها إلى الحزن انتهت؛ ثم لأنها من لسان كان سلمًا يترجم عن قلب كان حربًا، ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيًا إلى قبر...!).

وهو يقول في الرسالة السادسة: (إن وصفها لهمٌ جديد، وإنها الآن في نفس غيرُ من كانت فالكتابة عنها ضربٌ من العَنَت، كالترجمة من لغةٍ إلى لغة، فلولا كان ذلك والهوى متفق؛ ولكن يا شمسَ السماءُ

مجِّي من ريقك على هذا القلم حتى ينسج وشْيَه وزُخْرفه، واجمعي في هذه الصحيفة نوت الابتسام وماء الدمع، وأخرجي منهما ما يخرج النبات من الضوء والماءِ زهرًا وثمرًا وورقًا أخضر.. وحطبًا يابسًا بَعْدُ... أما إنها فِتْنةٌ خلقت امرأة، فإذا نظرتْ إليك نظرتها الفاترة فإنما تقول لقلبك، إذا لم تأتي إليّ فأنا آتية إليك!..

خُلقت مقدّرةً تقديرًا كأن كل شيء فيها وضع قبل خلقه في ميزان الجمال ووزن هناك بأهواء القلوب ومحابتها، وكأنها بعد أن تم تكوينها أرسلت الملائكة في دمها نقطة عِطر، فهي تُنفخ على القلوب برائحة الجنة...).

وهناك رسائل فدوى طوقان إلى أنور المعداوي والتي انفرد بنشرها الناقد الكبير رجاء النقاش... وهناك أيضًا رسائل إبراهيم طوقان إلى شقيقته فدوى التي نشرها المتوكل طه، حيث يكتب إبراهيم إليها من بيروت: (أختي العزيزة والدرة المكنونة، القايمة من الجونة، القاعدة على أذنيها.. بعد تقبيل وجنتيك الخضراوين، أخذت تحريرك الذي كتبته بمداد الشوق، وقد نزلت السوق وسألت عن هذا الحبر لأكتب لك به أيضًا ولكني لم أجده، فأرجوك إذا كان موجودًا منه عند الحجاوي أن ترسلي إليّ زجاجة وأنا أدفع ثمنها.

يوجد في مكتوبك أغلاط يجب أن تتجنبيها في المكتوب التالي:

(مضى زمنًا طويلاً) غلط... (مضى زمنٌ طويل) صح. لأن الذي (مضى) هو الزمن فهو فاعل، والزمن الذي وَصفُهُ أنه طويل، والوصف يكون مثل ما قبله في الإعراب).

وكانت فدوى في بدايات الدراسة في المرحلة الابتدائية وكان شقيقها مدرسًا للغة العربية في بيروت.

وفي الحقيقة فإن عظماء العالم كانوا يهتمون بالرسائل وبكتابتها.. حتى إن لم يكونوا مقدرين للحب مثل "ألفرد دي موسيه" الأحمق الذي أحب "جورج صاند" وكان عمره ٢٣ عامًا وعمرها ٢٩ عامًا وأخلصت له وجادت بكل ما تملك، لكنها حين أصيبت بالباراتيفوئيد تركها في سرير مرضها، وراح يمرح مع نساء مدينة البندقية، بل وأهانها وسبها وقال عنها إنها "الملك مجسد في امرأة".. وحين مرض وقفت إلى جواره لكنه لم يرحمها وحملها بالكره ناحيته فأحبت الطبيب الذي عالجهما معًا "بيترو باجلو" لكنه حب لم يستمر، ترجاها موسيه خلاله بأن ترجع له لكنها رفضت، وطلبت منه الرحيل فرحل وكتب لها: (طلبتِ مني أن أرحل وأنا راحل.. طلبتِ مني أن أعيش، وأنا أعيش) لكنها ردت عليه بمكتوب تقول له فيه: (وداعًا يا ملاكي.. سأراك في الصيف.. سأحبك كأخي الصغير.. كطفلي.. وداعًا يا طيري الصغير.. حب دائم من جورج العجوز).

وتركها موسيه ومات في ٢٩ مارس عام ١٨٣٤.

أما أرنست هيمنجواي فقد كتب لمحبوبته النجمة الألمانية مارلين ديتريش بعد أن ارتكب فعلته الآثمة: (آمل ألا تعثري على خيانتي، لأنني في أعماقي مخلص. ففي يوم ما وضعت خطة رائعة لتنفيذ قرار حازم بأن أحب شخصًا واحدًا وحسب. وقد اشتهرت الخطة باسم "خطة السنوات السبع لهيمنجواي" وذهبت تلك الخطة أدراج الرياح).

أما الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريجان فقد كتب لزوجته "نانسي" عشرات الرسائل التي نشرتها مؤخرًا في كتابها "أحبك يا روني".

يكتب ريجان إلى زوجته في ٤ مارس ١٩٨١ قائلاً:

(عزيزتي السيدة الأولى

من موقعي كرئيس للولايات المتحدة أشعر بسعادة وامتنان أن أناديكِ بلقب على المستوى القومي من أجل الخدمات التي تقدمينها، والتي تفوق كل جهدك لأنك صنعت من رجل (الذي هو أنا) أسعد رجال العالم منذ ٢٩ سنة. منذ عام ١٩٥١ فإن نانسي ديفيد أدركت الموقف الصعب لرجل وحيد لم يكن يعرف إلى أي مدى بلغت وحدته وقد اختارت أن تنقذه من حياة فارغة تمامًا، رفضت أي أمر يمكن أن يثنيها عن عزمها حتى بعض الحماقة من ناحيته. وكانت تجهل إجابته المتأخرة وبصبر وحنان نجحت تدريجيًا أن تضيء ذهنه المظلم والمعوج، فاكتشف السعادة في أن يحب بكل قلبه. ثم أدخلت نانسي ديفيد السعادة على حياته على مدى ٢٩ سنة.

لقد حققتِ كل هذا برغم أنه لا يجد دائمًا الكلمات ليعبر بها عن امتنان لأنه بدونها كان مفقودًا. إنه يجلس في المكتب البيضاوي ومن خلاله يمكنه لو انحنى قليلاً أن يرى نافذة حجرتها فتسري فيه حرارة الحب لمجرد أنه يعرف أنها موجودة هنا خلف النافذة وهذا اعتراف من رجل استفاد الكثير من بطولتك.

وفي النهاية يوقع بإمضائه: رونالد ريجان رئيس الولايات المتحدة.

ثم ملحوظة منه.. هو – أي أنا – أحبك وأعبدك).

نعم فالحب لا يعترف بمراتب الناس وماذا يعملون.. إنه يخترق كل الحواجز، ويثقب كل جدران الصمت، ليصل إلى القلوب دون أن تبحث عنه.. هناك زجاج ضد الرصاص، وسيارات للرؤساء ضد الرصاص، لكن لا واقي من الحب فهو أقوى من الرصاص.

وتتعدد مكاتبات الرؤساء ورسائلهم، سواء في الحب أو في السياسة، فنجد بوش الأب يصدر كتابه "خاص" الذي ضم مجموعة رسائل متبادلة بينه وبين رؤساء وسياسيين ومسؤولين في معظم دول العالم.. ولكني توقفت كثيرًا أمام هذه الرسالة التي كتبها إلى صدام حسين في ٥ يناير ١٩٩١ يقول له فيها:

(فخامة السيد صدام حسين" رئيس الجمهورية العراقية، بغداد

السيد الرئيس:

ها نحن الآن عشية حرب بين العراق وبقية العالم. هذه الحرب بدأت في اليوم الذي اجتحت فيه الكويت، ولن تنتهي إلا بانسحاب العراق كليًا ودون شروط وفقًا للقرار ٦٧٨ الصادر عن مجلس الأمن الدولي. وإذا كنت أكتب إليك شخصيًا اليوم فذلك لأن الحالة على درجة من الخطورة لا يجوز معها إغفال أي فرصة توفر على الشعب العراقي كارثة متوقعة. إنني أكتب إليك لأنه قيل لي أنك تجهل مدى عزلة العراق، وما يتوقع لبلادك نتيجة ذلك..

إن هذه ليست رغبة الولايات المتحدة وحدها بل هو أيضًا موقف الأسرة الدولية كما تم التعبير عنه في ١٢ قرارًا اتخذها مجلس الأمن.

إن أفضليتنا بالتأكيد هي نهاية سلمية. لكننا في الوقت نفسه لن نقبل بما هو أقل من التطبيق الكلي للقرار الدولي ٦٧٨، لا يمكن لأي عدوان أن يكافأ، ولن تكون هناك مفاوضات. إن مبادئنا تستبعد كل تسوية. وإذا قبل العراق هذا القرار استعاد موقعه ضمن الأسرة الدولية، وفي المستقبل القصير المدى سوف يتجنب القادة العسكريون العراقيون الخسائر الكبرى.

وفي المقابل فإنك إذا لم تنسحب من الكويت، كليًا ومن دون شروط فسوف تخسر ما هو أهم من الكويت - فإن هذا البلد يحرر غدًا ويعود إلى موقعه - أما أنت فسوف تخسر مستقبل العراق.

إن الخيار بين يديك.. أكرر الخيار بين يديك.. وأحب أن أعتقد أنك سوف تتخذ قرارك بكل ضمير وكل حكمة، لأنه قرار تتوقف عليه مضاعفات هائلة).

وصدام حسين لم يستمع إلى بوش ولا اهتم بكلماته.. وكيف يهتم مثل هؤلاء الحكام سوى بأنفسهم.

دعونا نعود إلى زمننا الجميل، ونستمتع بحكاياته من خلال الأوراق الخاصة التي تحملها الصفحات المقبلة...

سامي كمال الدين